

Résumé :

Au début du siècle, la défaite militaire des touaregs, en Ajjers et Ahaggar, contre l'armée coloniale va avoir de nombreuses répercussions sur le plan de la stratégie guerrière, de l'organisation politique et sociale, du système de valeurs, du code de l'honneur de cette société « Assabienne » et enfin sur le découpage territoriale des espaces géopolitiques traditionnels.

La perception du monde touareg comme un agrégat de tribus querelleuses en dissensions internes constantes domine les écrits de la période coloniale et prévaut également dans la plupart des études historiques ou ethnologique post-coloniale.

De ce fait, cet article s'intéresse à la recomposition des rôles sociopolitiques et à la mise en œuvre du processus de division des pôles politiques de l'Ajjer et Ahaggar au début du siècle selon la vision du politique coloniale dont le père *De Foucauld* fut l'expert.

نص المقال:

مقدمة

إن فهم قرارات و تصرفات الفاعلين الاستعماريين لا يمكن ان يكون الا بالرجوع الى نظرتهم للتنظيم السياسي "للعصبية" و مصادر استراتيجيتهم. من خلال الرجوع الى ما نفذته السلطات الاستعمارية تجاه التوارق من قرارات ومواقف ميدانيا والبحث في ارشيف ودراسات الفاعلين في السياسة الاستعمارية تجاه التوارق ك الاب فوكو وبعض الدارسين الذين يعتقدون أنهم مختصين في دراسات المجتمع التارقي، ماذا يميز تلك النظرة الاستعمارية؟ وكيف اهتدت الى فكرة التقطيع و التجزئة و اختراع النماذج السلطوية و الغاء الموجودة؟ وماذا يمكن استنتاجه كانعكاسات على تطور العصبية و مؤسساتها ضمن الوضع الاستعماري "الجديد"؟

على ضوء ما سبق، نحاول في هذا المقال اختبار المبادئ النظرية حسب المفهوم الأوروبي للسياسة و تحليل منحى الأفكار التي تخصها و كيف تعاملت و صاغت في كل مرحلة سياسة خاصة تجاه العصبية، مستمدة و مستوحاة من بعض منظري السياسة الاستعمارية بالصحراء.

التنظيم السياسي للعصبية كما يراه الأوروبيون:

إن تطور الأحداث منذ الغزو الاستعماري لآ زجر و أهقار إلى غاية الاستقلال وما صاحب ذلك من تغيرات على مختلف المستويات، يمكن أن يقسم إلى أربعة مراحل: الغزو، التمرد، الخضوع، الثورة. و كانت هذه الفترات محل تقييم بعض الباحثين خاصة في المرحلتين الأوليتين، لكن دائما بأفكار مسبقة و أحكام قديمة.

إن تصور العالم التارقي بصفة عامة كمجموعة قبائل متصارعة متفككة قد طغى على كتابات الفترة الاستعمارية و ظهر أيضا في اغلب الدراسات الانتوغرافية و التاريخية الحديثة بعد الاستعمار.

هكذا يقدر F.figlestad بان " التوارق نهاب بالفطرة و مستعدون للعودة إلى عاداتهم [...] بمجرد وجود الفرصة". بينما يبين فيما يتعلق بتمردات 1916-1917 "الغياب الكلي للتنسيق و التوافق في ظل عدم وجود زعماء حقيقيين من بين المتمردين"⁽¹⁾.

و هو الطرح الذي يردده الأفارقة⁽²⁾ المتخرجين من المدارس الفرنسية دون عناء أمثال " اندري ساليفو André salifou " الذي يقول انه عند ظهور الأطماع الأوروبية في القرن العشرين " لم تكن الوحدة السياسية ل: آير موجودة، لقد هربت القبائل الأكثر قوة و ارتدت كل واحدة إلى أراضيها الخاصة"⁽³⁾ بينما يرى أصحاب الأطروحات الايدولوجية أمثال " بورجو André bourgeot " الذي يشرح فيما يخص موضوع مقاومة فهرون و كاويسن بأنهم " خلقوا ظروف تحريض شاملة، أكيد غير منظمة و دون تنسيق و الذي -رغم ذلك- اشعل في ذلك الحين مجموع بلدان التوارق و هو حدث لا سابق له في تاريخ هذا الشعب "⁽⁴⁾

1 -Hélène Claudot HAWAD, "Eperonner Le Monde" un nomadisme, cosmos et politique chez le touarègues, edisud, Aix-en-Provence, 2001, P07

2 - يستعمل معظم الباحثين الافارقة في وصف اعمال المقاومة و الدفاع من طرف من يفترض ان يكون مواطنيهم اليوم، مصطلحات عصابة، فهاب، لصوص و مجرمين...

3 - Salifou André, kaoussan ou la révolte sénoussiste, CNRSH, Niamey, 1973, P24

4- Bourgeot André , « Les échanges transsahariens, la senusiya et les révoltes twareg 1916-1917 », In cahier d'études d'africaines (69-70), Paris 1979,159-185

و أخيرا بالنسبة لـ "كيل" أو أهل أزجر يعتبر قاست Marceau Gast أنه " ليس
لمختلف المعارضين للهيمنة الفرنسية أي تفكير سياسي واضح و منسق " ⁽¹⁾.

إلى هذه التحليل التي تؤيد فكرة كانت موجودة قديما حول الفوضى البربرية تضاف الكثير من
الروايات التاريخية حول التوارق خلال الأحداث المتراكمة التي وصفها العديد من الملاحظين
الأجانب.

إن عدم الفهم هذا، ناتج أساسا من استعمال وسائل بحث نظرية و ميدانية غير
لائقة من جهة و عدم الأخذ بعين الاعتبار بصفة جدية الرؤية المحلية للتنظيمات التقليدية
(العصبية) و تطورها مع الأحداث.

إن كل السياسة الاستعمارية الخاصة بالمجتمع التارقي مبنية على أساس أفكار و
آراء إما المغامرين الأوائل (بارث، ديفيرييه، فورو...) و إما الضباط و الجنود الطلائع
(لابرين، باسي، دينو، قارديل...) و منها أنتجت مصطلحات و تصورات مستمرة إلى
اليوم، تحددها في الغالب العلاقة مع المستعمر؛ كتوارق حقيقيون، متحضرون وأصدقاء لأنهم
خاضعون، مقابل توارق متعصبين و متخلفين أعداء القضية الفرنسية، لأنهم رافضون
للخضوع و التعامل مع المستعمر، والتهمة الجاهزة أنهم مستعمرين من أطراف خارجية مثلما
صنف كل من أمود و اقتدازن أو أنسي أق أملال.

و كان أسوء تصنيف أنتجته الأنا الأوروبية هو العرقنة و نموذج صراع الطبقات المستورد
والذي تم اسقاطه مباشرة من الوضع السوسيو-اقتصادي السائد بأروبا في عهد الاقطاع ⁽²⁾

**1 - Marceau Gast, «Aijer », in Encyclopédie berbère, edisud,Aix-en
Provence,1986,P393**

2 - أنظر: مرموري حسن، التوارق بين السلطة التقليدية والادارة الفرنسية في بداية القرن العشرين،

منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010، صص 147-208

ان أهم الانعكاسات الميدانية لتلك الرؤى كانت على التنظيم السياسي المحلي وفضائه السيادي، فيما يمكن اختصاره بالعرقة والتقطيع.

العرقة و تقسيم السلطة

تسمح دراسة الأرشيف الاستعماري الفرنسي معرفة كيف أن التوارق و بصفة رسمية تم تصنيفهم ك: عرق، اندجان، إقطاع، نهاب و عصابات... و تم التعامل معهم طيلة فترة الاستعمار على هذا الأساس.

إن أول مخبر لوضع نظام وسياسة استعمارية لكل الفضاء التارقي تقريبا كان كونفدرالية أهقار (بعد هزيمة تيت 1902). الخبير والمنظر كان الراهب فوكو.

إن التصور الذي طوره هذا الأخير يرتكز على تصنيفات طبقية مبنية على أساس الأحسن و الاسوء، المسالم و الشرير... لقد بدأ بالعصبية الحاكمة أو بمن سماهم " نبلاء اهقار الجامدين"، ثم بالعصبية الموالية أو "التوابع" حسب مفهومه، والذين يرى أنهم جيدون يمكن تحضيرهم "civilisable" كما يمكن تربيتهم "éducable" بمعنى أن لهم القابلية للتطور على النحو المراد والاستجابة لواجب الاستعمار و يتبين ذلك جليا في وصفة تمردات 1916 في رسالة إلى الرائد Duclos يستعمل فيها ألفاظ "تطويع الحيوانات"، فيقول: "إن هذه الأعمال العصبانية، آتية من الذين لم يهتم بهم أي ضابط بعد رحيل لابرين. فبعد أن قضوا مدة دون الإحساس بالموت، هاهم يعودون إلى حالتهم الوحشية الحيوانية. النبلاء هم الجزء الشرير السيئ العاصي و الكسول. لا يفكرون إلا في السرقة و السيطرة على حسابنا

على السكان و استغلالهم. إِمغاد[الموالين] الذين لا يغادرون أبدا اهقار يحققون تقدما جيدا
نتيجة تواصلهم المباشر معنا" ⁽¹⁾

متوحشون، استغلايون أشرار، كسلاء... هي أهم ميزات "النبلاء" في هذه الرؤية التي تتسم
بالغياب الكلي لكل قيمة أخلاقية أو اجتماعية. أخيرا ما يعيبه عنهم "الراهب العسكري
فوكو" هو اختيارهم للاستقلال بدل الاستعمار!

من جهة أخرى تشكل المعزولات الاثنية، العشائرية، الثقافية الدينية و الجهوية إحدى أهم
موضوعات العمل الاستعماري.

حيث يعتبر التوارق على أنهم قبائل معزولة دون اتصال و لا علاقة فيما بينها مع عدم القدرة
على التنسيق و التسيير الجماعي مما أنتج "تحليلات" متكررة ومملة للمقاربة التكنولوجية و
التاريخية للتوارق ⁽²⁾.

إن القلق الذي كان ينتاب العسكريين الفرنسيين في بداية القرن العشرين كان يتمثل في "خطر"
عدوى اهقار من طرف التوارق الآخرين في الجنوب و الشمال الشرقي و الذين لم يتم السيطرة
عليهم بعد. لقد كانوا يخشون تقاربهم مع "أعداء فرنسا"، السنوسية و الأتراك و الألمان.

لذلك أصبح كسر الشبكة و تعطيل الحركة و عزل كل "كيان" على حدى أهدافا استراتيجية
ذات أولية.

لقد وضعت الإدارة الفرنسية مخططا لتقسيم الأقطاب السياسية (الكونفدراليات) بالطريقة التي
منحت من طرف فوكو.

1 - Lettre du(16-04-1916),in Goré G, sur les traces de Charles de
Foucauld, nouvelliste, Lyon, 1936

2 -A.bourgeot,(1979) ,et A. salifou,(1973)

إن التوصيات التي وجهها هذا الأخير إلى الرائد ديكلو Duclos في رسائل مفصلة تتضمن تجزئة واضحة لمجموع كيل أهقار بتقسيمهم إلى قبائل مستقلة الواحدة عن الأخرى و التي تجزأ بدورها إلى عشائر منفصلة بنفس الطريقة.

وفي هذا ينصح بالنسبة لقبيلة " تايوق " الذين يشكلون جزءا من كيل أهقار بما يلي: " لابد من الاهتمام جديا ب تايوق و عشائريهم، كيل أهفت، تجهي-ن-افيس، ارشومن. لا يمكن تركهم أحرارا، لقد استثنى النقيب دينو Dineaux و بحكمة زعيمهم الوحيد منفصلا الكل و لكل قبائل تايوق [. . .] حيث تتبع كل واحدة منها مباشرة الضابط، قائد مجموعة أهقار"⁽¹⁾

إن هذه الطريقة المتمثلة في وضع كل القبائل تحت التبعية المباشرة للضابط قد وسعت إلى آزر ثم إلى الأقطاب السياسية الجنوبية المنهزمة.

إن القلبية و العشيرة أو الصنف الإجتماعي قد تم تصورها على النموذج العرقي و الاثني ككيانات مغلقة أو على شكل معزولات تجريبية. وعلى اثرها تم إرساء السياسة الاستعمارية لتسيير المستعمرين بصفة عرقية مفيدة للمستعمر و مكلفة جدا بالنسبة للمستعمر.

في إعادة تفسيره للقواعد الخاصة بالانتماء القبلي يرى فوكو أن الإجراءات المتخذة " تتناسب مع التقليد"⁽²⁾ إلا أن اعتقاده هذا يطرح إشكالا في القراءة التي يستعملها لوصف و فهم تنظيم هذا المجتمع و المنتقاة من سلسلة الصفات الخاصة كما يميزها: الأصل، التفرع، الصنف الاجتماعي . . .

1 - Gorré, op-cit, 1936, PP 176-177

2 - Ibid, P177

وفي الأخير أدى تعديله للتقليد أو العادة، من خلال تفكير اوحادي يرسم فضاء مجزأ حسب أصناف اجتماعية غير قابلة للمزج، إلى إنشاء كيانات من نوع اوحادي وحيد و معزول.

النتيجة شبيهة بإسقاط نموذج "العرقنة" الذي يكامل صورة المنطق المتناوب الذي تم وضعه في التصورات السياسية و طريقة تنظيمها و تسييرها ثم استراتيجيتها و مؤسساتها ثم إعادة تشكيلها في الأخير.

تقطيع الفضاء السيادي:

في سنة 1901 عين الرائد لابرين على رأس قيادة إقليم الواحات ملحق تديكت الذي لا يتضمن حينها سوى منطقة عين صالح ورقان إلى غاية الفترة الممتدة بين 1902-1906 أين يضيف لابرين اهقار إلى الملحق و في هذا الوقت مازال أزجر لم يحتل، وكانت الحملات العسكرية و الإدارية مستمرة لإخضاع سكانه و تدجينهم⁽¹⁾

و رغم ذلك لم يستثنى من استراتيجية الاب فوكو في تصوره للتقسيم و التقطيع الاستعماري للإقليم، إذ يعتبر أن: "امتداد ملحق تديكت يساوي مرتين و نصف مساحة فرنسا [...] يبدو من غير الجدوى تعليل استحالة التسيير الحسن لمثل هذا الإقليم من طرف رئيس ملحق واحد . فمن المستحسن، وبدون إطالة، تعديل إقليم تديكت؛ فبدل ملحق واحد نخلق ثلاثة : تديكت، اهقار، أزجر " ⁽²⁾

وقد حدد الراهب في تفاصيل دقيقة حدود كل إقليم ومقره و تشكيلة إدارته، عدد الضباط و المترجمين و مهامهم ومسارهم المهني و حتى عطلمهم.

1 - André Bourgeot, "Sahara espace géostratégique et en jeux politique", Auterpart, Paris, 2000, P24

2 -- in Gorré, 1936, PP115 -116

المواصفات مبنية على تصور عسكري لتنظيم الصحراء بصفة مماثلة لقلاع محاصرة والتي لا بد من ضمان دفاعها عن طريق تقسيم تربيعة لإقليم مراقب بواسطة مجموعات متحركة.

يتعلق الأمر بمخطط مهيكلي و متين ناتج عن أفكار عسكرية مستمدة من تصور استعماري لتنظيم الإقليم و من حدس سياسي و استراتيجي ملفت للانتباه.

بعد إمضاء الاتفاقية الفرنسية -التركية حول مرافقة القوافل بأزجر و إمضاء اتفاقية نيامي لتسطير الحدود بين الجزائر و إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF) في 20 جوان 1909، ومن جراء الوضعية الناتجة عن ميلاد مصلحة إدارة الأقاليم الجنوبية، يكتب فوكو رسالة إلى الرائد Depommier حول موضوع تنظيم الفرق الصحراوية: " هذه التغيرات تبدو ضرورية بعد احتلال جانت [...] يمكن جمع هذه الأخيرة مع بولينياك و تمانسين كمكتب وحده، بينما يحتفظ عين صالح بتديكت، في حين يبقى في الجنوب اهقار و توات. أما في الحدود الإيطالية فإنه من الضروري وضع رئيس مكتب بجانت مقابل غات ⁽¹⁾. و كالعادة يسهب في تفاصيل دقيقة للغاية. في الأخير تم الاعتراف الرسمي بهذا المخطط بعد صدور المرسوم المؤرخ في 11 جوان 1924 الذي يقسم تديكت إلى ثلاثة ملحقات: تديكت، اهقار، أزجر تماما مثلما صوره الأب فوكو.

بالنسبة لهذا الأخير فإن مخططة لتنظيم الصحراء يندرج في استراتيجية الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، و التي هي بمثابة تقسيم للصحراء الوسطى على أساس يتناسب نوعا ما مع الأقطاب القديمة (الطليل) أي اهقار و أزجر.

وكما يبدو فإن "مخطط فوكو" أنجز في محتوى إقليمي ودولي خاص كان أهم ما ميزه إعلان الحرب الإيطالية التركية بطرابلس الغرب و احتلال التبستي و بركو بتشاد عن طريق الأتراك الذين يحاولون بالتحالف مع السنوسيون الحفاظ على مواضعهم بإفريقيا كآخر جهد .

وجاء المخطط أيضا في وقت يشهد إعادة تنظيم داخلي عام للفضاءات الاستعمارية (اتفاقية نيامي و ميلاد إدارة الأقاليم الجنوبية) .

و أخيرا كانت الوضعية آنذاك تشهد اضطرابات حرية على مستوى حدود الامبريالية الاستعمارية الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى .

لذلك فإن العودة إلى هذه الظروف ستسمح بفهم و توضيح الأسباب التي أدت بـ: فوكو إلى إنجاز هذا المخطط و الذي يرجع إلى رؤى و أهداف جيوسراتيجية مسبقة بتحليل و دراسات جيوسياسية للمجتمع لا تبحث سوى عن الحفاظ على مصالح الامبريالية الاستعمارية .

فضلا عن ذلك فإن الإيديولوجية "الفوكولدية" المعبر عنها عن طريق كتاباته ومراسلاته هي قومية، وطنية، مسيحية استعمارية ولا حساب فيها "للإندجان" ولا استثناء للتوارق .